

التربية والتعليم عند الجاحظ وأبن رشد

د. مثنى علوان الجشعمي

كلية التربية / جامعة ديالى

المقدمة

الحمد لله الذي أنار بنوره العظيم جنبات هذا الكون الفسيح، غافر الذنوب جميعاً، سميع الدعاء الرحمن، الذي يسبح له ما في السماوات والأرض، الذي يهدي من يشاء ويضلّ من يشاء
أما بعد.....

تناولت في بحثي هذا موضوعاً كثر التأليف فيه سيما من علماء التربية و علم النفس ،فالموضوع هو التعليم عند الجاحظ و ابرز آرائه ، ماكان مجموعاً منها ضمن طيات كتاب واحد ، أو مبعثرة ضمن مجموعة كتب ،

تعكس هذه الآراء عقلية الجاحظ الفذة وسعة تفكيره ونبوغه، قسم البحث لهذا الغرض على فصول ،الأول بحث في التربية العربية سواء أكانت قبل الاسلام ، والتي تمثلها الأسرة و التي تعتبر من أهم الوسائل عند العرب البدو . أو كانت بعد الإسلام .
وأما الفصل الثاني ،فيبحث عن حياة الجاحظ و أهم مؤلفاته أو أهم آرائه في مجال التربية أو التعليم .. و من آرائه في المعلم و الكتاب و الطفل ..

والفصل الثالث ابن رشد من كبار علماء العرب واكثرهم تأثير في الفكر الغربي ، وتشهد بذلك مؤلفاته التي تناقلها العالم جيلاً بعد جيل وقد أمتازت آراؤه بكثير من العلمية والموضوعية لاعتمادها على الفلسفة والمنطق . أما آراؤه التربوية والتعليمية فنلمسها من خلالها عبقرية فذة ، وإنساناً يتمتع بأيمان عميق بمبادئ الإسلام وتعاليمه ، فقد استمد تلك التعاليم والمبادئ من مبادئ الإسلام وفكره المنير .

أما سبب اختيارنا لهذا الموضوع فهو قلة المصادر التي تتحدث عن هذه الشخصية الكبيرة ، فقد ظل طالب العلوم التربوية يركز على الجاحظ وابن سينا والغزالي وغيرهم كثير وقليلاً ما نجد طالباً أو باحثاً يتناول ابن رشد بالدراسة ، مع انه لا يقل منزلة عن غيره من علمائنا الكبار .

وأخير اختم مقدمتي بقوله تعالى :-

﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ البقرة / ٢٨٦

الفصل الأول

التربية العربية

أولاً:- التربية قبل الإسلام

إن أغراض التربية في العصر الجاهلي تُلخصت في إعداد النشء لتحصيل ما هو ضروري لحفظ الحياة وكان الغلام يتمرن على أعمال آبائه ليسلك طريقهم في كسب العيش وتحصيل اللباس واتخاذ المسكن وليقتدر على مواجهة الأعداء ومنازلة الوحوش .

وكانت التربية في العصر الجاهلي سيما عند الحضرة تهدف إلى تخريج الأحداث في الصناعات، والمهن المختلفة، كالهندسة والطب، والبناء والنقش، والتجارة، وغيرها من الحرف التي تساعد على توفير الرزق وتيسير العيش فوق ذلك كانت التربية في ذلك الزمان تهدف إلى بث العادات الفاضلة وغرس الصفات التي اشتهر بها العرب منذ القدم (١)

وكانت الأسرة أهم وسائل التربية عند العرب البدو الجاهلين وقد تشاركها في ذلك العشيرة التي تجمع أفرادها أو أصر النسب وروابط القرابة التي تعد صورة مكبرة للأسرة إذ كان الطفل يأخذ عن أسرته وعشيرته طرقها الخاصة في كسب القوت واتخاذ المسكن، ويتعرف من خلالها على أساليب الدفاع وطرق الإغارة على الأعداء وفنون الأعمال والصناعات، كالصيد، والرمي، والقنص..... الخ (٢).

ثانياً : التربية بعد الإسلام

أما التربية العربية بعد الإسلام فإن هذه الفترة تمتد حوالي ستة قرون ، بدءاً من القرن السابع الميلادي عندما انتشر الإسلام في شبه الجزيرة العربية ، ثم انتقل سريعاً إلى ربوع إمبراطوريتي الفرس، والروم حتى القرن الثالث عشر عندما قضى على الخلافة العباسية في بغداد على يد المغول عام ١٢٥٨م ، ففقد العالم العربي الإسلامي الكثير من مظاهر وحدته العقلية ، والروحية ، وسيطرت عليه أخلاق التتر والمغول واخذ ينحدر في طريق الاضمحلال العلمي والاقتصادي ، متأثراً في الوقت نفسه بتداعي المسلمين في الأندلس آنذاك (٣) .

(١) التربية في الإسلام، ص: ٢٩

(٢) التربية المعاصرة، طبيعتها وإبعادها الإنسانية، ص: ٤٢

(٣) ينظر:- التربية والتعليم ص: ١٦ .

وتنقسم هذه الفترة في الواقع إلى أطوار يتمركز كل واحد منها بخصائص ، وتأخذ التربية خلالها إشكالاتاً متباينة بعض الشيء ، فهناك الطور الأول ، طور نمو الإسلام في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهنالك الطور الثاني ، طور الفتوحات الإسلامية التي

بدأت في عهد أبي بكر أول الخلفاء الراشدين ، وقاربت نهايتها في عهد الأمويين ومن ثم طور الثالث طور تكوين الحضارة العربية ، والامتزاج بين الشعوب ، والحضارات ، ويبدأ هذ مع بداية العصر العباسي تقريباً، ويمتد حتى ظهور الأتراك السلاجقة في القرن الحادي عشر الميلادي ، وتدخل في هذا الطور حضارة الأندلس منذ القرن الثامن عشر الميلادي^(١)

وأما التربية في الحضرة فقد كانت أرقى ، وأوفى ، وفي وسعنا القول أنها كانت تنقسم إلى قسمين ، ابتدائية ، وعالية^(٢) .

وهناك ما يدل على انه كان لكل من القسمين مدارس ومعاهد خاصة به ، وكان الأطفال في القسم الابتدائي يدرسون الهجاء ، والمطالعة والحساب وقواعد اللغة ، وفن العمارة والنقش ، الآداب ، والتاريخ^(٣) .

أما في طرق التربية وأساليبها ، فلم يكن للبدو الجاهلين في الغالب طرق موضوعة ولا أساليب محددة في تربية النشء وتنقيفه وإنما كان الأحداث يأخذون ما يصل إليهم من الآداب ، والأخلاق والمعارف ، بالتقليد والمحاكاة ، او بما يسمونه من النصائح ، والعضات التي يلقيها الآباء والأمهات و ذوو العقول الراجحة من الأقارب ، ورؤساء العشائر ، أو ربما يتدبرونه في الشعر الحسن من المعاني السامية والفكر المبتكرة والأخيلة الدقيقة^(٤) .

أما الحضرة منهم فقد كانت لهم في التدريس خطط موضوعة وطرائق مألوفة و كان التعليم عندهم افرادياً ، ومن طرائقهم في التعليم الخط فالمعلم يكتب على ألواح من الطين الطري ، ثم يجففها ويقدمها للتلاميذ وقد عثر الباحثون في أنقاض مدنهم على كثير من هذه الألواح^(٥) .

(١) ينظر :- المصدر السابق ص: ٢٥-٣٠ .

(٢) ينظر التربية في البلاد العربية حاضرها ، ومشكلاتها ، ومستقبلها ص: ١١٢ .

(٣) ينظر المصدر نفسه ص: ٣٣ .

(٤) التربية عبر التاريخ ص: ٢٦١ .

(٥) المصدر نفسه ص: ٢٦٥ .

وهناك أخيراً الطور الرابع الذي يبدأ مع ظهور الأتراك السلاجقة وينتهي بظهور قبائل المغول في أواسط آسيا في القرن الثالث عشر الميلادي ، تلك القبائل التي زحفت على البلاد الإسلامية كالوباء ، فأهلكت الحرث والنسل ، وقضت على الكثير من أماكن العلم ودور الكتب و كما قضت على الخلافة العباسية في بغداد ١٣٥٨ على يد هولاكو الذي أقام

على أنقاض الخلافة إمبراطورية ضخمة تمتد من الهند إلى آسيا الصغرى ، دامت مدة قرن تقريباً^(١) .

أما أهم دور للتربية الأخلاقية في الإسلام يمكن تحديده بصورة إجمالية في كونها الوسيلة الوحيدة لبناء خير فرد، وخير مجتمع وخير حضارة ، والعلاقة بين هذه الجوانب وثيقة ، والغاية من هذه كله تحقيق سعادة عامة وشاملة في المجتمع لأنه إذا عم الخير الفرد والمجتمع و تكون السعادة نتيجة طبيعية لذلك .

وقد قرر الإسلام مبدأ النضج في المجتمع ، بأن ينصح كل فرد الآخر ؛ إذا رآه يخالف السلوك الأخلاقي فقال عليه الصلاة والسلام ((الدين النصيحة ، قلنا لمن ؟ قال لله ورسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم)) .^(٢)

ويمكن القول إن الحضارة في نظر الإسلام هي تقدم المجتمع من الناحية المادية ، والمعنوية في جميع مناحي الحياة الإنسانية بروح خيرة ، ونحو غاية خيرة^(٣) .

الفصل الثاني

الجاحظ حياته مؤلفاته

أولاً : حياته :- أراؤه

الجاحظ هو (أبو عثمان عمرو بن بحر) هو سليل الحضارة العربية واللغة الصافية ، والأسلوب الرشيق الضاحك الساخر الذي تمكن من أن يجعل العربية لغة أدب وحكمة وينتمي في الأصل إلى قبيلة كنانة^(٤) .

وتقلب الجاحظ في أعمال يدوية قبل أن يشتهر بالأدب بعد أن تفتق ذكاؤه وظهرت قدرته على الحفظ، وقد ولد هذا الكاتب الفذ ، والفكر النير في أوائل سنة ١٥٠ هـ وامتد به العمر حتى قارب القرن ، وتتلذد لعدد من رجال اللغة والأدب ، ومنهم أبو عبيده ، وأبو زيد الأنصاري ، وأبو الحسن الأخفش النحوي ، ودرس الحكمة ، وعلم الكلام على النظام وشافه ،^(٥) .

(١) ينظر :- التربية و التعليم ص: ٣٠.

(٢) لم اعثر على هذا الحديث في معجم الاحاديث .

(٣) ينظر :- التربية الأخلاقية والإسلامية ص: ١٣٥-١٣٧.

(٤) معجم الأدباء ، باقوت الحموي ، ج ١٦ ص : ٧٤.

(٥) الجاحظ فكر ومنهج ، د. داود سلوم ص : ١١.

وقد أدرك القدامى قدرة الجاحظ على إثارة النفس وإيقاظ الفكر وإيقاد شعلة حب المعرفة والتتبع ، مع خفة روح وعلم جم وهذا الذي حبه إلى الناس ، وزاد في دوران كتبه على الأيدي و ذكره على الألسن وكثرة الخصومة حوله^(١) .

وقد اتصل الجاحظ بكبار رجال الدولة ومفكري عصره ورجال الأدب ، وكانت له علاقة بمحمد بن عبد الملك الزيات ، والجاحظ مثلون في أدبه وفكره ، فقد خاض في الادب

والتاريخ والاجتماع والفلسفة والتاريخ الأدبي والبلاغة والنقد وحاول الجاحظ أن يجرب حظه في نظم الشعر على قلة ولكنه لم يكثر منه فلعله قد أحس بأنه يكفيه ترويض النثر الذي بات طوع بنانه ، ولكنه أيضاً عكس في شعره ، روح الاعتزاز والفخر في أدبه ونبوغه و هو أيضاً ممتلئ بالنكته العلمية والتندر على أصحابه^(٢) .

والجاحظ لم يحترم شيئاً كما احترم الثقافة والعلم ولم يعجبه إلا عالم ، أو باحث ، أو أديب ، وقد عد العالم فوق مستوى الأمير و فضل مشهد العالم في شخص أمير وهو معزول من الولاية على رؤيته وهو في دست الحكم^(٣) . وكان يرى أن الكاتب أو العالم إنما يكتب للجماهير ولذلك فعليه وفي سبيل أن يعلمهم أن يكون واضحاً سهلاً وميسوراً .

ولابد لنا ونحن نتحدث عن الجاحظ ، من الحديث عن بيئته الثقافية ، فهو سليل بيئة لبصرة الثقافية ، التي مكنته من بناء شخصيته الأدبية ، والعلمية ، وكيف لا وهي أولى الحواضر الإسلامية التي شيدها العرب بعد قيام دولتهم ، وكانت تعد أهم مركز ثقافي في الدولة العربية الإسلامية ، لتجمع فصحاء العرب وخطبائهم ، ولقد عجت بعشاق المعارف من الشباب وطلاب العلم^(٤) .

ونتيجة قولنا أن مصادر ثقافة الجاحظ ، كانت متنوعة بحيث شملت الثقافة العربية الأصيلة ، في الشعر والأخبار والأنساب والقبائل و علوم القرآن والحديث والفقه والسنة والثقافات الجديدة المترجمة ، وقد اختار الجاحظ لنفسه منهج المعتزلة متأثراً بابي الهذيل العلاف ، وإبراهيم النظام ، وثمامة بن أشرس ، ألا أن النظام أكثرهم تأثيراً في اعتزاله . إن قدرته الفذة على التوليد والتنظير حدت باتباعه إلى تكوين فرقة اعتزالية جديدة سميت بالجاحظية ، اجتمع إليها الكثير من مؤيديه والمعجبين به^(٥) .

(١) ينظر الجاحظ منهج وفكر ص: ١٢ .

(٢) ينظر الجاحظ منهج وفكر ص: ١٣ .

(٣) ينظر الجاحظ فكر ومنهج ص: ٢٣ .

(٤) ينظر: العصر العباسي شوقي ضيف ص: ٥٨٧، نقلاً عن مجلة الضاد .

(٥) النثر الفني واثر الجاحظ فيه، ص: ٢٢٤ نقلاً عن مجلة الضاد .

رأيه في المعلم :

إن الصورة التي نقلت عن الجاحظ فيما يخص التركيبة النفسية عن المعلم في كتب الادب التي تلتها كانت مشوهة ، أو مزورة ، أو مبالغاً فيها ، ويبدو أن كثيراً من طالبي النادرة ، استعاروا بعض ما وضع الجاحظ من نواذر حول المعلمين ، او قد اعتاد ان يضع نواذره في خاتمة بحوثه ، وان ما أورد كتاب الأدب عن نواذر حول المعلمين أو نسبوها إلى الجاحظ ، لم تكن بقلم الجاحظ ، أو يبدو إن سبب تلك النواذر حول المعلمين هي

اختلاف مستوى المعلمين في عصر الجاحظ نفسه، مما دعا الناس إلى ذمهم و الإساءة إليهم ، لأنهم طبقة لا يحميهم السلطان أو ليس في أيديهم السيوف كاهل العسكر من أتراك وعرب (١).

وقد بين الجاحظ إن السلوك الفعلي الذي يمارسه المعلم أمام التلاميذ من الأساليب التعليمية الناجحة ، لأن هذا يعتمد على قوله تعالى :

﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وا ذكروا الله كثيراً ﴾ . (٤) الأحزاب ٢٧

ويحتل المعلمون موقفاً ذا أهمية كبيرة من سلوك المتعلمين عن طريق خلق العادات السليمة التي تدخل في بناء شخصيتهم ، أو خاصة عند الأطفال ، لأنهم يتوقعون من المعلم ما هو أفضل ، أو أحسن لكن إ ذا تبوء المعلم موقفاً سلبياً في نفسية المتعلم الذي يرى معلمه يعمل عكس ما يقول أو يخفي غير ما يظهر ، فانه لا يابيه لأقواله ، أو يصبح قدوة سيئة تعطي شراً أكثر مما تعطي خيراً إ ذ أشار الماوردي إلى ذلك بقوله :- ((على العالم أن لا يقول ما لا يفعل ، ثم يتجنب أن يقول ما لا يفعل ، وان يأمر بما لا ياتمر ، وان يسر غير ما يظهر)) (٢) .

ويستشهد بأبيات من الشعر

و عامل بالفجور يأمر بالستر	كهاد يخوض في الظلام
أو كطبيب قد شقه سقم	أو هو يداوي من ذلك السقم
يا واعظ الناس غير متعظ	ثوبك طهر أو لا فلا تلم

(١) ينظر: الجاحظ منهج وفكر ص: ٥٥.
(٢) الأسس النفسية لأراء الماوردي التربوية ص: ٧٠.

و ينبغي أن يكون المربون مثلاً صادقاً أو قائماً لتربية المتعلمين ، يتفق قولهم مع فعلهم أو يلتزمون بكل ما يدعون إليه بصدق ، ولا يفرطون في شيء مما يدعون إليه ... وإلا اهتزت صورة المربي في أذهان المتربين أو يتحول المثل الصالح إلى مثل طالح ، أو قالوا في ذلك كثيراً ، ومما قالوا :- ((إن أقوال المعلم إ ذا خالفت أفعاله فإنها لا تقدر أثرها فحسب وإنما يكون لها عكس التأثير الذي توخاه المعلم ، فيكون مثله كمثل الطبيب الذي يتناول الطعام ، وفي الوقت نفسه يزرع الناس عن تناول هذا الطعام ، بحجة أن فيه سمّاً ناقعاً)) (١) .
وقد ميز الجاحظ بين مستوى المعلم الرديء و المعلم الجيد إ ذ قال عن المعلمين ((وهؤلاء هم الذين هجرتهم أو شكوتهم حاججتهم ، أو فحشت عليهم ، أو ألزمت الأكابر ،

ذنب الاصاغر وحكمت على المجتهدين بتقريط المقصرين ، ورثيت لإبء الصبيان من إبطاء المعلمين عن تحذ يفهم ، ولم يرث للمعلمين من إبطاء الصبيان عما يراد بهم ، و المعلمون أشقى بالصبيان من رعاة الضأن و رواض المهارة)) (٢) .
للعلم منزلة رفيعة عند المسلمين وقد جعل الرسول صلى الله عليه وسلم - نفسه معلماً فقال " أما بعثت معلماً " وجاء في أمثالهم : " من علمني حرفاً ملكني عبداً " .
لاشك أنها بحق قليل منهم وهم الذين لا يعرفون الواجب الملقى عليهم فيحيدون عن طريقتهن المتلى ولكن يؤخذ الأبرياء بذنب المقصرين وهل يؤخذ الجميع بذنب البعض ؟ يقول الجاحظ مخاطباً من يغمط حق المعلمين : "ألزمت الأكابر ذنب الاصاغر وحكمت على المجتهدين بتقريط المقصرين ولو نظرت من جهة النظر علمت إن النعمة فيهم سابقة والشكر لازم واجب " (٣) .

وقال أيضا يصف المعلم بحق :- "ما كان عندنا بالبصرة أدرى بفنون العلم ولا أحسن بيئاتاً من أبي الوزير وأبي عدنان المعلمين " فقد يكون المعلم من علماء اللغة أو من القراء أو الكتاب كالوشاء وأبي معاوية النحوي وأبي عبدا لله القاسم بن سلام فهم من أجلة العلماء . ويقول الجاحظ عن منزلة المعلمين : "لو استقصيت عدد النحويين والعروضيين والحساب والخطاطين لوجدت أكثرهم مؤدب كبار ومعلم صغار فكم تظن إنا وجدنا منهم من الرواة والقضاة والحكماء ومن الهداة ومن الحماة والكفاة ومن القادة ومن الذوات ومن الرؤساء والسادة ومن كبار الكتاب والشعراء والأدباء ومن أصحاب الرسائل والخطابة (٤)

(١) الوعي التربوي أو مستقبل البلاد العربية ، ص : ١٩٦ .

(٢) الجاحظ منهج أو فكر ، ص : ٥٥ .

(٣) التربية والتعليم في الإسلام : سعيد الديوهجي ، ٤٢ .

(٤) ينظر التربية والتعليم في الإسلام : سعيد الديوهجي ، ص ٤٣ .

وينظر الجاحظ إلى مهنة التعليم نظرة تختلف عما كان ينظر إليها بعض ذوي زمانه إلى طبقة معينة من الذين امتهنوا التعليم (معلمي كتاب القرى) ودافع الجاحظ عن المعلمين دفاعاً مجيداً فقال مندداً بمن ينتقد المعلمين : " وما زلت اسمع هذا القول في المعلمين . والمعلمون عندي على ضربين : منهم رجال ارتفعوا عن أولاد العامة إلى تعليم أولاد الخاصة و منهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد الخاصة إلى أولاد الملوك أنفسهم المرشحين للخلافة فكيف تستطيع تزعم إن مثل علي بن حمزة الكسائي ، ومحمد و محمد بن المستنير الذي يقال له قطرب وأشباه هؤلاء يقال لهم حمقى ؟
ولا يجهوا القول على هؤلاء الطبقة التي دونهم فإ ذا ذهبوا إلى معلمين كتاتيب القرى فان لكل قوم حاشية وسفلة فما هم في ذلك إلا كغيرهم " (١) .

وكان اختلاف مستوى المعلمين في عصر الجاحظ نفسه دعا بعض الناس إلى ذمهم والإساءة إليهم لأنهم طبقة لا يحميها السلطان وليس في أيديهم السيوف كاهل العسكر من أتراك أو عرب ولذلك فإن المعلمين لم يستطيعوا حماية مهنتهم ولا حماية سمعتها ومع ذلك فإن الجاحظ ميز بين مستوى المعلم الرديء والمعلم الجيد^(٢). وهو في رسالة (المعلمين) جاد كأبعد ما يكون الجد عندما يقارن بين أنماط الثقافة ومناهج التعليم فيميز بين الثقافة التي تعتمد على الحفظ، والثقافة التي تعتمد على الفكر "والقضية الصحيحة والحكم المحمود انه متى أدام الحفظ أحر ذلك بالاستتباط ومتى أدام الاستتباط أحر ذلك بالحفظ وان كان الحفظ اشرف منزلة منه"^(٣).

ويرى الجاحظ إن المعلم بمعناه الواسع هو كل هؤلاء العلماء في الحضارة فكيف ندم المعلم من دون ندم حضارة العرب كلها .

العلم في نظر الجاحظ أو فلسفة العلم عنده

إن الحركة العلمية العربية كانت نتيجة عوامل عدة أهمها الجدل العلمي الدقيق الذي نهض به المعتزلة . فقد نبه جدل المعتزلة العقل العربي إلى دقة الملاحظة والقدرة على التحليل فنية ذلك الإحساس العلمي بظواهر الطبيعة^(٤).

(١) البيان والتبيين: الجاحظ، ج ١ ص ٢٥٢

(٢) ينظر الجاحظ منهج وفكر: د. داود سلوم، ص ٥٥.

(٣) المصدر نفسه: ص ٥٦.

(٤) الجاحظ منهج وفكر، ص: ٨٣

وكان للتراث العلمي المترجم أو الموروث عن شعوب أخرى اثر لتطوير هذا التوجه، وكان الجاحظ أكثر علماء المعتزلة قدرة على نقل إمكانية الجدلية في علم الكلام والفلسفة إلى التطبيق العلمي سيما قدرته على الملاحظة والمقارنة والاستنساخ من الظواهر وتحليل بعض ما غمض منه، وكان يعوز الحركة العلمية اليقظة التي تتصف بالاندفاع المصمم للكشف عن الحقيقة المختبر العلمي الذي كان يمكن أن يطورها وينقلها من النقاش النظري والمقايسة إلى التطبيق العلمي والعملية لها^(١).

ويمكن أن نقسم مبادئ الجاحظ العلمية إلى قسمين^(٢).

أ- المبدأ السلبي .

ب- المبدأ الايجابي .

أ- المبدأ السلبي هذا المبدأ يقوم على الأفكار النظرية للخبر العلمي الشا ذ والغريب أو يقوم على تحليله وتعليه ووضع لذلك قاعدتين لرفضه، الأولى " ما تناقض واستحال " والثانية " ما امتنع في الطبيعة وخرج من طاقة الخلقه " (٣).

التعليم عند الجاحظ

ينظر الجاحظ إلى مهنة التعليم نظرة تختلف عما كان ينظر إليها بعض ذوي زمانه الذين امتنوا التعليم فالتعليم كغيره من المهن له رجاله الذين ارتفعوا إلى مستوى عال وكانوا على حظ كبير من العلم والثقافة، والأدب، فمنهم معلمو اولاد الملوك المرشحين للخلافة (٤).

وقد كتب الجاحظ عن طبيعة الطفل والدوافع التي تقوم عليها بإثارتها عنده، ولا بد إن يكون للتعلم دافع، وتطرق إلى الظواهر العضوية والنفسية وأثرها في تنشئة الطفل والى وظيفة الأعضاء وإهمالها وتركها يقضي إلى ضعفهأو تدهورها وفي ذلك قوله ((متى ثقل درس تناقلت النفس وتفاعست الطبيعة، ومتى دام الاستئفال احدث الهجراتو! ذا تطاول الكد رسخ الزهد، وفي ترك النظر عمى البصر)) (٥).

ويؤكد الجاحظ في إحدى رسائله على أهمية الاعتراف للطفل بشخصيته وحمله على استعمال اللغة الصحيحة ومشاركته الوجدانية فيما يحس به ويشعر، والتعبير عما في ذات نفسه على قدر معرفته، وعلى قدر ثروته اللغوية التي أخذها من مربيه ومؤديه (٦).

(١) المصدر نفسه، ص: ٨٣.

(٢) المصدر نفسه، ص: ٨٤.

(٣) الحيوان، ٣/ ٢٣٨٣.

(٤) الجاحظ، ص: ٢١.

(٥) الجاحظ، رسالة في الجد والهزل

(٦) الجاحظ، رسالته في المعلمين، ص: ٢٨.

الآراء التربوية للجاحظ :

أ- رأيه في الكتاب :-

فالكتاب عند الجاحظ له دور في توارث الخبرة والحفاظ عليها، فدعا إلى ضرورة مساهمة الفرد في تنمية التراث الثقافي للجماعة، لأن الثقافات الحية تخضع إلى حركة دائمة تضمن لها النمو والتطور ولذلك تراه قد قال :- (ينبغي أن يكون سبيلنا لمن بعدنا كسبيل من كان فينا على إنا قد وجدنا العبرة أكثر مما وجدوا كما أن من بعدنا يجد العبرة أكثر مما وجدنا، لان المتعلم يجد في كل مكان الكتاب عتيدا) (١).

و قال الجاحظ في هذا الصدد مبيناً أهمية الكتاب :-

((الكتاب وعاء مليء علماً، وظرف حشي ظرفاً أو بستان يحمل إزهاراً، أو ناطق عن الموتى، ويترجم للأحياء، أو أعلم رفيقاً أطوع، ولا معلماً أخضع ولاصاً حباً

أظهر كفاية أو أقل جنائية ، ولا أكثر أعجوبة أو تصرفاً أو لا أقل تصلفاً أو تكلفاً ، ولا ازهد في جدال ، ولا اكف عن مقال من كتاب ((^(٢) .
و أكد على أن الكتاب هو الجليس الذي لايطريك .. أو الصديق الذي يغيريك ، و لايعاملك بالمكر ، أو لا يخدعك بالنفاق ، و يحتال عليك بالكذب ، وهو إن نظرت إليه أطال إمتاعك أو شحذ طباعك ، أو يسط لسانك ، أو فخم ألفاظك وعمر صدرك ، وهو الذي يطيعك بالليل كطاعته بالنهار ، أو يطيعك بالسفر كطاعته بالإقامة ، ولا يعنل بنوم أو يعتريه الكلل أو السهر ، وهو المعلم الذي إن افتقرت إليه لم يحقرك ، وإن قطعت عنه مادة لم يقطع عنك الفائدة))^(٣) .

رأيه في الطفل:

لقد وردت المادة الجاحظية عن الإنسان مفرقة أو موزعة وفي كتب لاتوحي بهذا التوجه ، فهو حين يخوض في موضوع يخص العقائد مثلاً ، كما فعل في كتابه العثمانية ، نراه يقود الجدل إلى مناقشة بعض جوانب السلوك الإنساني ، لاسيما مرحلة الطفولة ومرحلة النضج ، فهو يتكلم على نمو الأطفال بين السابعة ، والتاسعة ، جسداً وعقلاً ، ويرى إن النمو الطبيعي يجعل هؤلاء الأطفال في مستوى عقلي واحد إلا إذا كان الطفل ظاهرة خارقة في الذكاء والقدرة ويوضح رأيه الذي تدعمه المشاهدة والدراسة^(٤)

(١) صفحات تربوية ، من التراث العربي ص: ٩-١٨ .

(٢) البيان والتبين ، ص: ٣٣ .

(٣) الجوانب السيكولوجية في أدب الجاحظ ، ص : ٧٣ .

(٤) ينظر العثمانية ص: ١٥ .

وتحدث عن قدرات الطفل في هذه المرحلة وبين بأنه يتميز بالقدرة على الحفظ ، وقبول التلقين ، بل إن الطفل يفهم ويحفظ ما لقن به^(١) .
وقد اعترف الجاحظ ضمناً إن قدرة الخيال والعاطفة عند الطفل هما اللتان تتغلبان ، وإن القدرة العقلية إنما تكون قدرة تالية يترك لها مجال التفتح بعد النضج والدراسة ، ونمو الحاسة لديه^(٢) .

كتب الجاحظ عن طبيعة الطفل والدوافع التي تقوم بإثارتها عنده ولا بد إن يكون للتعلم دوافع كما تطرق إلى الظواهر العضوية والنفسية وأثرها في تنشئة الطفل ، وتطرق إلى وضيفة الأعضاء وإهمالها وتركها تقضي إلى ضعفها أو تدهورها وفي ذلك قوله : (متى ثقل المدرس ثققلت النفس وتقااست الطبيعة ومتمى دام الاستئقال احدث اللهجات وإ ذا تناول الكد رسخ الزهد وفي ترك النظر عمى البصر)^(٣) .

ويخلط الجاحظ في المسألة التربوية ولا يجزم في مسألة التقارب الذهني بين الطفل ومعلمه ومحاولة العلم والوصول إلى ذهن الطفل من خلال التصاغر في سهولة المادة والبدئية والفكرة ، وهو في احد أقواله يظن أن بناء المعلم الفكري وبناء مقارب لذهن الطفل وفي هذا خلط عجيب إذ إن القول الآخر يناقض ذلك ، ويرى إن الكبير يتصاغر للطفل كي يفهم عنه فهو يعرض فكرته الأولى بقوله : (وقد قالوا الصبي عن الصبي افهم ، وبه أشكل ، وكذلك الغافل والغافل ، والأحمق والأحمق ، والغبي والغبي ، والمرأة والمرأة .. فما أعان الله تعالى به الصبيان إن قرب طبائعهم ومقادير عقولهم من مقادير عقول المعلمين)^(٤) .

وان هذا القول قول عجب ، والأعجب منه أن يصدر عن الجاحظ بعدما قدم لنا عن المعلمين ورتبهم ، ولعله لا يريد أن تكون هذه المقادير قائمة في الطبيعة وإنما تصدر عن التربية والمران والممارسة لمعرفة المعلم بطبيعة الطفل ولذلك فهو يقول في رأيه الآخر : (إلا ترى أن ابلغ الناس ، وأجودهم بيانا ، وأدقهم فطنة وأبعدهم رؤية لو ناطق طفلاً هو ناغي صبياً لتوخي حكاية مقادير عقول الصبيان ، والشبه لمخارج كلامهم ، وكان لا يجد بدأ من أن ينصرف عن كل ما فضله الله به بالمعرفة الشريفة والألفاظ الكريمة وكذلك تكون المشاكلة بين المتفقيين في الصناعات)^(١) إذا كان قوله الأول في الصناعات قصد به إلى ما أوضحه في النص الثاني يكون الجاحظ لم يقصد سوءاً بمعلمي الأطفال ، وربما فهم عنه قراؤه ها هنا خطأ وحملوا هذا الخطأ الذي أوضحه بهذه النوادر التي ملأوا بها

(١) ينظر : العثمانية ص: ١٦ .

(٢) ينظر : المصدر نفسه ص: ١٧ .

(٣) الجاحظ منهج وفكر : د. داود سلوم ص: ٥٧ .

(٤) الجاحظ منهج وفكر : د. داود سلوم ص: ٥٦ .

بطون الكتب عن المعلمين . وفي آخر رسالة يفاضل بين الدروس التي يجب إن تقدم للصبي ، فهو لا يرى في عويص مسائل النحو كثير فائدة ، ولذلك فانه يقول : (وأما النحو فلا تشغل قلبه منه إلا بمقدار ما يؤديه إلى السلامة من فاحش اللحن ومن مقدار جهل العوام في كتاب أن كتبه وشعر أن انشده وشيء أن وصفه وما زاد على ذلك فهو مشغلة عما هو أولى به)^(١) .

التربية الأخلاقية عند الجاحظ

إ ذا كان الجاحظ مصورا اجتماعياً بارعاً فقد كان مرشداً أخلاقياً بليغ الأثر فهو إ ذا حمل على المرئيين والمستثمرين والحاسدين والمكدين وصغار النفوس فما كانت التسلية رائدة بقدر ما كان الإصلاح عن طريق ردة الفعل .. ولم يكتف بوصف أو نقد ما يجري بل مضى بوجه نحو الأكمل ويرشده إلى الطرق الفضلى التي تسمو بالإنسان نحو تحقيق مثله

الأعلى في الحياة وهو العامل بوحى مذهبه القائل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويتخلص آراؤه المناقبية بشيء من المحافظة الاجتماعية والتمسك بالفضائل التي يفخر بها المسلم ومنها الإحسان والبر بالوعود والكرم والتعاضد والواجب الإنساني والاعتدال في طلب اللذة وتسليط الإرادة على الهوى .
لقد كان على يقين بان الإنسان لن يكون سعيداً إلا إذا سار بهدى ضمير الحي وراقب أعماله بدراية وسمع إلى نصح المخلصين من أصدقائه واعتبر بمصاب غيره^(٢) .

التربية العقيمة في سلوك الجاحظ :-

كان الجاحظ من جملة الذين كانوا يسيرون في ركب الملوك والولاة ويطيعون أوامرهم وينتهون بنهيههم فكتب رسالة في "الرد على النصارى" إرضاء لشهوة الخليفة العباسي في إثارة الحقد على النصارى بما كانت تنعم بها هذه الطائفة من الخطوة الكبيرة لأولياء نعمته^(٣) . وهو يمدح الخمر في رسالته (النبيذ والشارب والمشروب) ويخلص القول إلى انه يفرح الإنسان ويعزز معنوياته ويساعد على جمع شمل الخلان^(٤) .

(١) المصدر نفسه : ص ٥٧ .

(٢) ينظر المصدر نفسه : ص ١٤٣-١٤٤ . الجاحظ دراسة عامة . جورج غريب ، ص ١٠٧ .

(٣) المصدر نفسه : ص ١٢٣ . الجاحظ دراسة عامة . جورج غريب ، ص ١٢٣ .

(٤) ينظر المصدر نفسه : ص ٦١ .

رأيه في الثواب والعقاب :

وفي رسالة من رسائله ، تناول الجاحظ موضوع الثواب والعقاب وماهية السياسة التي ينبغي على المعلم ، أو القائد التربوي التي يجب عليه إتباعها والتصرف بموجبها ، وفق تمكنه من ضبط مشاعره الخاصة والسيطرة على نفسه في تدبير شؤون رعيته سواء في البيت ، أو الصف ، أو في مجال ، فالرغبة ، والرغبة في نظر الجاحظ أصلاً لكل تدبير ، وان وضع الأمور في نصابها واستعمال الأشياء على وجهها الصحيح من قبل المربي يجعله في موضع الثقة والاعتزاز ، والتقدير ، من قبل الآخرين وعكس هذا الحال ، يورد الباعدة وانقطاع العلائق الوجدانية بين المعلم والمتعلم .

وان تصرف المربي بعيداً عن النصيحة ، والشفقة والحرمة الكافية يوجب المباعدة ، وان شخصية المربي القلقة وتصرفاته غير المنضبطة والمتوازنة وميزاته للأمر بغير الحق وتفضيله بعض التلاميذ على البعض الآخر دون استحقاق ودون تمييز بين الجيد

والرديء بسبب هوى معين ، وهذا كله يجلب السخط على صاحبها أي المربي ويقلب النفع ضرراً أو الإصلاح فساداً ، فالعمل التربوي يجب أن يقوم وفق مبادئ تربوية سليمة وعادلة (١).

رأيه في التربية العقلية :

اهتم الجاحظ بالتربية العقلية أو حاجة العقل إلى الرعاية والتعهد فهو عرضة للتأثير أو الانحراف أو المرض ، فرعايته أو إصلاحه تكون بالعلم في محتواه كما أو نوعاً . فعلى قدر صحته تصح النفوس ، فإن كان المحتوى فاسداً فاسد العقل أو الضمير ، أو من أخطأ الطريقة ، كان أسوأ حالاً ممن لم يخطئها ، وفي هذا المعنى له قول :- " لسان العاقل من وراء قلبه فإن أراد الكلام تفكر ، فإن كان له قال ، وإن كان عليه سكت ، وقلب الجاهل من وراء لسانه ، فإن هم بالكلام تكلم به أو عليه " (٢).

وقد أشار الجاحظ إلى العلاقة بين النظرية أو التطبيق و إلى أهمية الاستنباط والاستدلال والتميز بين المهم والأهم ، وهذا مبدأ تربوي حديث من الناحية التاريخية ؛ إذ ذكر الجاحظ في كتابه البيان والتبيين "ولولا استعمال المعرفة لما كان للمعرفة معنى

(١) ينظر : رسالة المعاش والمعاد ص: ٢٥.

(٢) التربية في البلاد العربية ، حاضرها ، ومشكلاتها ومستقبلها ، ص: ٢٥.

والإنسان الحساس ؛ إذ كانت الأمور مميزة عنده أخذ ما يحتاج إليه وترك ما يستغني عنه (١)"

واشهر الجاحظ إلى عبارات منها " أريد إن أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه فقال : كيف يترك العلم رضاعه و ذكر قول الأحنف عندما سمع رجلاً يقول :- التعلّم في الصغر كالنقش في الحجر والكبير اكبر عقلاً ولكنه اشغل قلباً (٢).

وقد كتب الجاحظ بصدد موقف إلام الجاهلة من الطفل العبارات الطريقة الآتية " إن الصبي يبكي بكاءً شديداً متعجباً فإنّ ذا كانت الأم جاهلة حركته في المهد حركة تورثه الدوار أو تنومه بان تضرب يدها على جبينه ومتى نام الصبي وتلك الفرعة أو اللوعة أو المكروه قائم في جوفه أو لم يعلل ببعض ما يلهيه أو يضحكه أو يسره ، حتى يكون نومه على سرور فيسري فيه أو يعمل في طباعه ، ولا يكون نومه على عتم افزع " (٣).

رأيه في مسألة الحفظ والاستنباط :

في هذه المسألة بين الجاحظ ميزات ، وفضائل كل منها حيث أكد على :-

أولاً: ضرورة التلازم والترابط بين المسالتين .

ثانياً: إن الأخذ بالنقل ، والحفظ دون الاستنتاج والتفكير يضر صاحبه .

ثالثاً : إن الاعتماد على العقل ، والاستنباط فقط يضر بالحفظ وطبيعته ، لان طبيعة الحفظ هي غير طبيعة الاستنباط (٤).

وفي هذه المجال ننقل قول الجاحظ إ ذ ذكر " إن مذاكرة الرجال تلقح لألبابها ، وكرهت الحكماء الرؤساء أصحاب الاستنباط والتفكير ، جودة الحفظ لمكان الاتكال عليه ، وإغفال العقل من التميز والحكم المحمود انه متى أدام الحفظ اضر ذلك بالاستنباط ومتى أدام الاستنباط اضر ذلك بالحفظ ومتى أهمل النظر لم تسرع المعاني ، ومتى أهمل الحفظ

(١) أعلام التربية ، ص:٧٣.

(٢) البيان والتبيين ، ص:١٧٤.

(٣) الجوانب السيكولوجية في أدب الجاحظ، ص: ٢٧.

(٤)إعلام التربية ص:٨٥.

لم يعلق بقلبه وقل مكثها في صدره ، وطبيعة الحفظ غير طبيعة الاستنباط" (١)
وقد استشهد الجاحظ بقول الإمام علي رضي الله عنه لتأييد قوله السابق إ ذ قال عليه السلام " قيمة كل امرئ ما يحسن " (٢).

الخاتمة ونتائج البحث

من خلال الحديث والكتابة عن آراء الجاحظ ، وجدت إن الفكرة التي تولدت لدي عن الجاحظ في دراستي الأولية من إن الجاحظ رجل يحدث عن الأدب و البلاغة ، كانت فكرة سا نجة ، لأنه ومن خلال هذا البحث ، تغيرت و اتضح لي إن هذا الرجل الذي عكف على الدراسة أو البحث وقدم للعالم آراء يوخذ بها ويعتمد عليها في المسيرة التربوية بشكل خاص ومسيرتنا الاجتماعية بشكل عام .

وقد اتضحت لدي الاستنتاجات الآتية :-

أ- لم يدع الجاحظ - رحمه الله - مجالاً من مجالات الحياة إلا وتطرق إليها وبحث فيها بحثاً مستقيضاً .

ب- إن الآراء التي توصل إليها و خاصة في المجال التربوي أثبتت صحتها و مدى مطابقتها للواقع التربوي في وقتنا الحاضر مما يدل على سعة أفق تفكيره .
ت- لقد أعطى الجاحظ لكل من الرجل والمرأة والطفل مكانة مرموقة بحيث جعل منهم وحدة متكاملة لخدمة المجتمع .
ث- دفاع الجاحظ عن المرأة ولد لدي رأيا بان الجاحظ قد أعطى مكانة اجتماعية مرموقة وكيف لا وهو متأثر بتعاليم الإسلام التي جعلتها مساوية للرجل في الحقوق و الواجبات وانه لم يدافع عنها مفضلا إياها على الرجل بل ليذكر الرجال بحرمة النساء .

(١) الجاحظ رسالة في المعلمين نقلا عن ص ٢١.

(٢) ينظر : ص ٢٢.

الفصل الثالث

أبن رشد :

هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد ولد أبن رشد في قرطبة في بيت عرف بالفقه والقضاء كان أبوه قاضي الملكية في زمانه ، وكان جده من أهل العلم والفقه وله مباحث في الفلسفة درس ابن رشد معظم العلوم الشائعة في عصره على يد كبار الأساتذة فأجيز في الفقه والطب كان ابن رشد محبا لفنون الأدب وشعر العرب في الجاهلية والأسلام .

التقى ابن رشد بأكابر العلماء في عصره كأبن طفيل وابن ماجه وأبي بكر بن العربي سافر ابن رشد قبل الثلاثين من عمره الى مراكش فقربه الغلظ والأمرأ وكان مع ذلك أشد الناس تواضعا وأخفضهم جناحا وكان حسن الرأي ذكيا قوي النفس ، حتى صار مضرب الأمثال . ولما علت مكانة ابن رشد عند أمرأ الموحدين كثر حاسدوه فسدوا عليه الدسائس حتى وقعت له محنة استمرت عاما ثم ظهرت الحقيقة ببراءة ابن رشد . لم تطل حياة ابن رشد بعد محنته فقد مات بعدها بعام ونقلت رفاتة الى قرطبة ودفن في مدفن أجداده بمقبرة ابن العباس .

ترك ابن رشد العديد من المؤلفات الفقهية والطبية والفلسفة وفي علم الفلك والنحو وصلنا من مؤلفاته حوالي (٨٧) كتاباً (١) .

أهم مؤلفاته :

- ١- الكليات (في أصول الطب)
- ٢- بداية المجتهد ونهاية المقتصد (كتاب في أصول الفقه)
- ٣- تلخيص القياس
- ٤- تلخيص الجدل
- ٥- جوامع الحس والمحسوس
- ٦- تلخيص الجمهوريّة (وهو تلخيص لجمهوريّة أفلاطون)
- ٧- مقالة في العلم الإلهي
- ٨- فصل المقال وتقدير ما بين الشريعة والحكمة من الأتصال
- ٩- شرح أرجوزة ابن سينا في الطب
- ١٠- تهافت التهافت (نقض في هذا الكتاب الإمام الغزالي المسمى (تهافت الفلاسفة) من أشهر كتبه
- ١١- شرح البرهان
- ١٢- شرح السماء والعالم

(١) مجلة العربية الندوة الخامسة : ٢٢

١٣- شرح كتاب النفس

١٤- شرح ما بعد الطبيعة (١)

وغيرها كثير ، كشفت لنا عقلية فذة تمتع بها هذا الرجل وقدرته الفائقة على الجدل والنقاش والمحااجة ونقض الدليل بالدليل .
يبدووا واضحاً ان نظام التعليم بالأندلس زمن ابن رشد والذي درس فيلسوفنا إطاره ، كان يقتضي التعمق في علوم اللغة العربية بعد حفظ القرآن ، ثم الانتقال بعد ذلك الى الفقه والتفسير والحديث الخ . أما (العلوم العقلية) ، أو علوم الأوائل ، فعلى الرغم من أنها لم تكن ضمن مواد التعليم الرسمي ، وأنها كانت تدرس في البيوت ، وفي الغالب خفية ، فقد خضع تدريسها - تاريخياً - لنظم وترتيب : الرياضيات أولاً ثم المنطق ثانياً ، ثم الطبيعيات ثالثاً ، ثم تأتي بعد ذلك (الفلسفة) ، بالمعنى الضيق للكلمة ، أي ما وراء الطبيعيات (الفلسفة الأولى ، الإلهيات ، الميتافيزيقيا) أما الطب فيقع بين الطبيعيات والألهيات .
وإذا كان ليس من شرط التخصص في الطب التعمق

في (ما وراء الطبيعة) ، فإن المعرفة بالعلم الطبيعي ضرورية لمن يمارس الطب ممارسة عملية .

وسواء كان هذا الترتيب اختياراً بيداغوجياً مقصوداً ، كما كان الشأن عند اليونان زمن أفلاطون وأرسطو ، أم كان بسبب تضيق الفقهاء على علوم الأوائل – مع بعض التسامح مع العلوم التي كانت الحاجة إليها مبررة دينياً أو اجتماعياً مثل الرياضيات والفلك والطب الخ ، وفي المقابل التشدد مع الإلهيات – فإنه ترتيب أفاد كثيراً الدراسات الفلسفية في الأندلس ، لأنه كان الترتيب الذي يقتضيه المنطق البيداغوجيا معاً .

إن ابن رشد دراسة دراسة تخصص كل من العلوم الدينية والعلوم الفلسفية ، وقد ألف منها جميعاً ، كما سنرى ، لا تأليف عارض وملخص ومفسر فحسب ، بل أيضاً تأليف مجتهد . ذلك على العكس من الفلاسفة الإسلاميين الآخرين ، كالكندي والفارابي وابن سينا وابن طفيل ، فليس فيما ألف هؤلاء ما يشير إلى جمعهم بين علوم الدين والفلسفة . ويبدو أن هذا الجمع (بين المنقول والمعقول) ، كان قد صار منهجاً مفضلاً في الدراسة زمن ابن رشد أو على الأقل كانت المعرفة بـ (المنقول) شرطاً في اكتساب الشرعية للخوض في العلوم الفلسفية فقد ذكر أن أبا بكر بن زهير الطبيب ، صديق ابن رشد ، كان يدرس لبعض الطلبة ، فأتاه أحدهم بكتاب في المنطق فأخذه منه وأبنه على تناول مثل هذه الكتب وأمر طلابه بقراءة كتب اللغة والدين كلما مر وقت امتحانهم في ذلك ، فلما وجدهم في مستوى جيد في العلوم الدينية أخرج كتاب المنطق الذي صادره منهم وقال لهم الآن يمكنكم قراءة هذا وأخذ يشرح لهم مسأله . وقد تردد مثل هذا الموقف لاحقاً في

(١) مجلة العربية الندوة الخامسة : ٢٣

مقدمة ابن خلدون فقد عقد فصلاً بعنوان (فصل في ابطال الفلسفة وفساد منتحلها) وصفه بأنه فصل مهم (لأن هذه العلوم في العمران كثيرة في المدن وضررها في الدين كثير) والجدير بالذكر ان الفلاسفة الذين ناقش آراءهم ووصفهم بأنهم (ممن أضلهم الله من منتحلي هذه العلوم) و ذكر أسماءهم اثنان : الفارابي وابن سينا . ونحن لانجد مبرراً لسكوت ابن خلدون عن ابن رشد ، وهو أقرب إليه زماناً ومكاناً ، بعد مناقشة طويلة لأراء الفلاسفة ، حيث كتب يقول (فليكن الناظر فيها ، الفلسفة) متحرزاً جهده من معاطبها ، وليكن نظر من ينظر فيها بعد الأمتلاء من الشرعيات والأطلاع على التفسير والفقہ ، ولا يكبن عليها وهو خلو من علوم الملة ، فقل أن يسلم لذلك من معاطبها . ومع أن ابن رشد قد تجند للدفاع عن الفلسفة وعلومها من منطلق وجوب النظر العقلي شرعاً ، و (أنه لا يؤدي النظر البرهاني إلى مخالفة ما ورد به الشرع ، فإن الحق لا يضاد الحق بل يوافقه ويشهد له) ، فإنه يشترط في من يريد النظر في كتب القضاء ، ويعني الفلسفة وعلومها ، أن يكون ممن (جمع أمرين أحدهما نكاه الفطرة والثاني العدالة الشرعية والفضلية العلمية والخلقية) ويشتكى ابن رشد مرات عديدة من (المتفلسفين) الذين يظنون أنهم (أدركوا بحكمتهم العجيبة أشياء مخالفة للشرع من جميع الوجوه ، أعني لا تقبل تأويل ، وأن

الواجب هو التصريح بهذه الأشياء للجمهور) ، فأضروا بالحكمة وبالشريعة معاً ، شأنهم شأن الذين يحرمون الفلسفة ويكفرون أهلها كما فعل الغزالي .
كان فلاسفة المشرق حاضرين بمؤلفاتهم وأجتهاداتهم وأشكالياتهم في الأندلس والمغرب ، وكان الفلاسفة في هذين البلدين واعين بـ (خروج) فلاسفة المشرق عن مذهب أرسطو ، الشيء الذي عبر عنه ابن طفيل بالقول أن (في كتاب الشفاء) أشياء لم تبلغ إلينا من أرسطو) أما الغزالي فقد كان ينظر إليه على أنه لا يستقر على مذهب معين وأن كتبه هي (بحسب مخاطبته للجمهور ، ترتبط في موضوع وتحل في آخر ، وتكفر بأشياء ثم تحلها) ... الخ . كما لاحظ ابن طفيل ، ومن قبله ابن باجة ، وغني عن البيان القول أن ابن رشد الذي رد على الغزالي و انتقد ابن سينا قد تكون في هذا المناخ الفكري ، وسار في الخط نفسه .

ترتيب التعليم والهاجس البيداغوجي :

هناك جانب آخر لا بد إبرازه هنا ، هو الجانب لبيداغوجي في تكوين فكر فيلسوفنا . لقد انعكس ذلك النظام التعليمي وهذا المناخ الفكري في فكره بصورة مباشرة ، سواء على صعيد ممارسة التأليف والتدريس ، أم على صعيد الرأي المعبر عنه كوجهة نظر بيداغوجية ، والمتابع لنصوص ابن رشد ، من هذه الجهة ، لا بد أن يلاحظ كيف أنه يلح باستمرار على ضرورة اتباع (الترتيب) في دراسة العلوم والفلسفة من ذلك قوله في كتاب (جوامع السماع الطبيعي) (كتاب الطبيعة لأرسطو) ، وهو من أوائل كتبه الفلسفية : (وبين أن الناظر في هذا الكتاب ينبغي أن يتقدم فينظر في صناعة المنطق ، أما في كتاب أبي نصر (الفارابي) وأما أقل ذلك في المختصرين الصغير الذي لنا) (ومن ذلك أيضاً تعليقه على الترتيب الذي اتبعه أرسطو في عرض أقسام العلم الطبيعي ، الذي بدأ بالبحث في المبادئ الأولى لجميع ما قوامه بالطبيعة لينتقل إلى اللواحق العامة)
للموجودات الطبيعية ، كالزمان والمكان ، يعلق ابن رشد على ذلك قائلاً : (فأما ترتيب التعليم المستعمل فيه ، فلما كنا إنما نبتدىء من الأمور التي هي عندنا أعرف ، سواء كانت هي المعروفة عند الطبيعة أو لم تكن ، وكانت المبادئ العامة أعرف عندنا في الطلب ، وأمكن أن يوقف عليها بسهولة من جهة العموم اللاحقة لها ، - وأما كان العام أبداً عندنا أعرف من الخاص ، لأن الأحاساس التي تحدث لنا من أول الأمر والتخييلات غير منفصلة ولا متميزة ، وليس الأمر في الطبيعة كذلك ، لأن المعروفة عند الطبيعة هي الأمور الخاصة التي منها تعمل الأشياء كالحال في الصنائع العملية - كان من الواجب أن نبتدىء بالنظر في المبادئ العامة للأمور الطبيعية ونتبع ذلك بالنظر في اللواحق العامة بها) ويختتم ابن رشد عرضه ذلك قائلاً : (فقد تبين من هذا القول ما موضوع هذا الكتاب وما غرضه ونحو التعليم المستعمل فيه ومرتبته ، وهي الجمل النافع تصورها عند ورود المتعلم على الصناعة وشرعه في النظر فيها) (٢) هذه النصوص تنتمي إلى مرحلة مبكرة من حياة ابن رشد العلمية ، فقد ألف الكتاب المذكور وهو في الثلاثينات من عمره ، وبالتالي

فهي تعكس بيداغوجية التعليم الذي درس في أطارها قبل أن تعبر عن أجهاداته الشخصية .
وأضافة الى ما تقدم نستطيع أن نستخلص من كلام ابن رشد نفسه ، في مناسبات عديدة ،
أنه درس فعلاً على الترتيب الذي ذكرنا . وأنه كان واعياً بأنه هو الترتيب المنطقي
والبيداغوجي المطلوب وأنه فضلاً عن ذلك درس على أساتذة مختصين . ليد على ذلك
قوله أن الزلل الذي قد يعرض لمن يدرس الفلسفة ليس من من الفلسفة ذاتها ، بل من عدم
اتباع الترتيب الصحيح في دراستها ، أو من دراستها من دون معلم . يقول : (وليس يلزم
من أنه أن غوى غاوي بالنظر فيها وزل زال ، أما من قبل نقص في فطرته ، وأما من قبل
سوء ترتيب نظره فيها ، أو من قبل غلبة شهواته عليه ، أو من أنه لم يجد معلماً يرشده الى
فهم ما فيها او من قبل اجتماع هذه الأسباب فيه أو أكثر من واحد منها ، أن نمنعها عن الذي
هو أهل للنظر فيها ، فإن هذا النحو من الضرر الداخل من قبلها هو شيء لاحقها بالعرض لا
بالذات) (٣)

(١) الجوامع في الفلسفة : ٨ .

(٢) م.ن. ١٠-١٢

(٣) فصل المقال : ٩٤

منهج ابن رشد التربوي .

١- غرس الفضائل : كيف نربي الحكمة والشجاعة والعدل والعفة وغيرها من الفضائل
في نفوس الأطفال ثم نحافظ على هذه الفضائل وإزالة الرذائل من النفوس الشريرة
بالأخرى تربية ضمير أخلاقي فيقول ابن رشد أن هناك ثلاثة أمور :
أ- أولها الوقوف على الشروط التي إ ذا وجدت في واحدة من هذه الفضائل مكنتها من
أن تفعل فمثال ذلك أن يقال : ما هي الشجاعة بإطلاق ؟ فيقال : أنها صفة تحصل
في النفس تقع بين التهور وطلبين وهي ملكة بها يصير الإنسان شجاعاً إ ذا يجب
وبالمقدار الذي يجب والوقت الذي يجب إلا أن هذا الحد يحتاج الى أن يقترن حيز
العمل بشرائط جزئية خاصة لا بد منها و ألا تعذروا العمل لأن القصد الأول في
هذا العلم إنما هو كما يقول أرسطو أن يعمل لا أن يعلم .

ب- والثاني معرفة كيف نرسخ هذه الفضائل في نفوس الأحداث ليربوا عليها بالتدريج
إلى أن يبلغوا كمالهم ثم إ ذا بلغوا كمالهم يعرفون كيف يحافظون عليه وأيضاً كيف
تزال الرذائل من النفوس الشريرة وبالجمله فالأمر هنا كالأمر في صناعة الطب :
فكما أن الجزء الأخير منها يشتمل على ما به يعرف كيف تنشأ الأجسام على
الصحة وكيفية حفظها وكيف تزال منها العلل إ ذا مرضت ، فكذلك الشأن هاهنا .
ج- الأمر الثالث القول في ملكة ، ومعرفة أي من الفضائل التي إ ذا اجتمعت

مع غيرها كان فعلها أكمل ، وأي منها يعوق غيره ، وكما يعرف الطبيب الأمور التي إ ذا اجتمعت في الجسم حصل منها البدء وحفظ الصحة فكذلك الأمر ها هنا .
وهذا كله إنما يوقف عليه (في هذا العلم) لمعرفة غاية هذه الكمالات والقصد منها أنها جزء من المدينة ، كما أن حفظ صحة الأعضاء وإعادة الأعضاء مرتبتها منها (١) .

نصائح ابن رشد التربوية .

أ- يجب أن نجنبهم أشعار الغزل فلا يسمعونها .

ب- أن لا يحزن أصلاً لوفاة قريب له ، كائن من يكون هذا الفقيد محبوباً أو صاحباً أو نسيباً ، وإ ذا تألم فليكن حزنه حفيفاً ، بل ينبغي إ ذا ما حدث ذلك أن يتحمل ويقوي من عزمه ويصبر صبراً جميلاً ، وأيضاً فأن البكاء من عمل النساء وضعاف النفوس وهو بعيد جداً عن طبع الحافظ وأيضاً لا ينبغي أن يتصف الرؤساء بالخوف .
ج- ينبغي أن لا يستغرقوا في الضحك إ ذا كلما عود المرء نفسه على هذا الخلق صعب عليه التخلص منه ولم يمكنه ذلك إلا بجهد شديد ، لا ينبغي أن يتصف الرجال الصالحون ولا الرؤساء بالإفراط في الضحك .

(١) ابن رشد وأثره الفلسفي في الفكر التربوي : ١٦٧- ١٦٨

دينبغي ان يحت الحفظة على الصدق وان يحرصوا عليه ذلك لأن الكذب لا يليق بالصالحين ولا بالملوك ولا بالجمهور ، أعني أنه لا ينبغي أن تكون لهم به صلة فإ ذا حدث ووجد من بين أهل الصنائع أو غيرهم من يكذب فإنه يجب معاقبته بل ينبغي أن يعرف الجمهور .

هـ- ينبغي على الحفظة أن يتجنبوا أكثر من أي شيء آخر الأقاويل المحركة إلى الذات ، وهذه موجودة كثيراً في أشعار العرب .

والأولى نسمعهم الأقاويل التي تحذر من الاقتراب منها ومن أثرها ، لأن ضبط النفس كما يقول أفلاطون ، إنما يكون مع العفة والأبتعاد عن اللذات الحسية .

و- ينبغي أيضاً أن لا يصغوا السمع إلى الأقاويل التي تحدث على الكسب وجمع المال ، لأن الأموال هي أكثر الأشياء إعاقة لهذه الصنائع ، فينبغي أن يحذروا الصبيان من سماعه ، وأنت تعلم أن شعر العرب مملوء بهذه الأمور الساقطة ، ولذلك فأن أشد الأشياء ضرراً أن يربى الصبيان والأحداث عليها منذ نعومة أظافرهم (١) .

أصناف المحاكاة وأثرها في التربية :

أنواع القصص هي :

أ-حكاية ظاهرة يحكى فيها عن الأشياء حكاية بسيطة بلا محاكاة ، وأما حكاية مع محاكاة الشيء المحكي عنه ، والمحاكاة نوعان : محاكاة بالصوت والهيئة والعبارة .

بمحاكاة بالقصص والرواية والشعر عند الأقدمين إنما كان ابتداء وفي الأغلب محاكاة بالصوت والهيئة ، ثم صاروا بعد ذلك المحاكاة بالعبارة ...و الشعراء العرب إنما كانوا يستملون في الأغلب المحاكاة التي هي من النوع الأخير أعني المحاكاة هي بالعبارة . وهناك قسم من الناس يتفوقون بالطبع في محاكاة ما هو هجاء وبعضهم إنما يجيد في المدح ، كما يحكى عن ابي تمام ، أنه كان يقدر على المدح ولم يكن يقدر على الهجاء وإ ذا كانوا يرغبون في محاكاة (تقليد) فيجب ان يحاكون منذ نعومة أظافرهم الأنسب لهم فيتشبهون بالموصوفين بالشجاعة وصواب الرأي والتقوى . وتجنبمحاكاة السفلة والأر ذال من الناس وبذلك تتحقق القصص غايتها في أن يتمثل المستمعين (الأطفال) ليحاولوا التشبه بأبطال القصص (ذلك إ ذا ما بدأت منذ الطفولة وطال أحداها جبلة وطبعاً ، وترسخت في الجسم والنفس) .

وليتجنبوا الشعر الذي يقوم بالغريب منه بوصف الأشياء الحسية بل ينبغي أن يجيز للشعراء أن ينظموا الشعر في أخبار من كان من النساء على الهدى وبالجملة على الفضائل الخلقية . وكما لاينبغي أن يجيز للشعراء أن يحاكون أي شيء أتفق فكذلك الشباب مع الذين يعملون التصاوير ، فلا ينبغي أن يسمح لهم بتصوير أي شيء وبخاصة من كان يصور مرتكبي الر ذائل ، وأما الفضائل فيجب محاكاتهم ، لأنه إ ذا كان الأطفال

(١) ابن رشد واثره الفلسفي في الفكر التربوي ص١٦٨ .

والصبيان أن يسمعوا ما هو خير ، فيجب كذلك أن يروا ما هو جميل حتى ترسخ فيهم الأفعال الجميلة وما ينبغي من الأستا ذ والموسيقى فإن الألحان المعبرة عن الحزن أو الخوف لا تليق بهم كما لا يليق بهم الكلام . الذي هو من هذا الجنس بلا أحيان ، وكذلك لا ينبغي لهم أن يؤلفوا الأنغام المائعة التي تعمل في جلسات الشراب او التي تعزف في محلات الخفة وإنما ينبغي أن يعمل لهم من تأليف الألحان نوعان : أحدهما النوع الذي يحرك في النفس الى ما يراد أن تتحلّى به من الفضائل اللينة الهادئة الساكنة ثم أن تقترن الموسيقى بالرياضة و ذلك لأن الموسيقى وحدها تحمل النفس على اللين وتصيرها ضعيفة وفي غاية الخمول والدعة وخاصة عندما تعزف اللينة من أحيانها وكذلك الرياضة فإنها إ ذا عملت بمفردها بحقل النفس في غاية الغضب ، فلا تقبل الأقاويل والأقناعية ، بل تبلغ الغاية في النفور مما يمليه العقل كما نرى ذلك يعرض لذوي الطبع الغليظ من القناة والذين لم ينالوا نصيباً من الأدب والتعليم إ ذن الموسيقى والرياضة هما وسيلتان وليستا غايتان وتعطى الأهمية للموسيقى التي تهدف الى أن تجنب الجميل والحقيقي قبل معرفتهما فتكون النفس أولى من تهذب الجسد والهدف هنا هو إنما القوة الروحية حتى التمرينات الجسدية ، ومن لم يهذب نفسه يهزل ويعيش كما يعيش الحيوان إلا أن التربية الجسدية ليست مهمة ولا مقلّة ، والرياضة تعد المحاربين الأشداء وتعود الجسد على طاعة الروح وتقوم الفضيلة هنا على التوسط أو الاعتدال والتوفيق بين الموسيقى والرياضة وليست الرياضة ولا الموسيقى غاية

بل كلاهما وسيلة الى الفضيلة الخلقية والفضائل الخلقية نكتبها بالتأديب والفضائل النظرية بالتعليم .

المنهج الدراسي عند ابن رشد ومستويات التعليم :

بعد أن يستعرض ابن رشد منهج أفلاطون الذي يبتدأ بالرياضيات ويجد له العذر قائلاً (فهذا ما يراه أفلاطون فيما يبداً به التعليم ، وإنما رأى هذا الرأي لأن صناعة المنطق في أيامه لم تكن قد وجدت . أما وقد وجدت هذه الصناعة فأنا الأصوب أن يبدأ التعليم بصناعة المنطق ثم بعدها ينتقلون الى علم العدد ثم الى علم الهندسة فعلم الهيئة فالموسيقى ثم الى علم المناظر فعلم الأوزان وبعدها الى علم الطبيعة ثم الى علم ما بعد الطبيعة) أو مستويات التعليم فيصح ابن رشد أئمة المسلمين بالنهاي عن الكتابة التي تتضمن (العلم) إلا لمن هو أهل لها كما يجب أن ينهوا عن كتب البرهان من ليس أهل لها ويطلب من السلطة الحاكمة التدخل في توجيه الفئات بين الناس في مجال المعرفة بحسب مستوياتهم ضروري في رأيه لما ينشأ من فتنة وفوضى أكد ابن رشد الفروق الفردية و ذلك من خلال نظريته الاتصال بالعقل المستند والمنبثق فأقصى درجات الكمال هو إمكانية الاتصال بالعقل العام أن يختلف باختلاف الأفراد .

التدرج في التعليم :

أكد ابن رشد التدرج في العلم ولذلك وضع منهجاً ابتداءً فيه بعلم الأعداد والحساب وهو علم لا يستغنيا عنه أي علم آخر ويمتزج بكل علم ثم يبدأ بتعلمهم الهندسة فعلم الفلك والموسيقى وعند بلو السادسة عشرة أو السابعة عشرة يقبلون على تعلم الفروسية حتى سن العشرين بعد إذ ينبغي الشروع بتعلم الفلسفة وتشرح لهم هنا الصنعة التمثيلية للحكايا والأقوال التي تقدم فيها للحقيقة للجمهور ويستمر تعليم الفلسفة حتى بلو سن الثلاثين وفي الخامسة والثلاثين تسلم اليهم رئاسة حتى سن الخمسين ، ومن هذا يكونون قد أصبحوا قادرين على قيادة المدينة وإدارة الأمور العامة وعندما يضعفون بسبب الطعن في العمر ينبغي عليهم الانسحاب الى جزر السعادة وهو بذلك يتبع أفلاطون في سياسة المدينة الفاضلة .

الإصرار على تعليم المرأة :

أظهر ابن رشد ثقته بالنساء كما وثق بهم أفلاطون فهن أهل لمشاركة الرجال في كل نشاط ولذلك اهتم بتربيتها وتعليمها للعلم خمس مراتب أولها أن تتصت وتستمع فتفهم ما تسمع أن تحفظ ما تفهم ثم أن تعمل بما تعلم ثم أن تعلم ما تعلم وإخلاص النية لله تعالى في طلب العلم والحث على طلب العلم والرحلة والانفاق في طلب العلم (١) .

وكان لأبن رشد طريقة مبتكرة في البحث العلمي تجرد فيها من مشاعر النفس ، وأهتدى بهدي العقل ، حتى قال فيه بعض كبار المؤرخين من أهل الغرب ، ولئن كانت هذه الطريقة قد جرت عليه بعض المشقات فإن ذلك كان بمثابة سحابة عابرة ، فأستعاد ابن رشد مكانته ، ومات موفور الكرامة ملحوظ الجانب .

ذهب في كتابه (تهافت التهافت) نفس المذهب الذي انتحله فيما بعد (فرنسيس باكون) فقال أن الدرس والتفكير ، قد يقودان الى فهم أقوام لما بين الدين والحكمة من صلة (٢) . كما يرى أن لا يصرح بالتأويل وبخاصة ما يحتاج منها الى برهان لغير أهلها وهم القادرون على البرهان والأستدلال بالمنطق كما يجب ألا نثبت شيئاً منا في الكتب الخطابية والجدلية الموضوعية للعامة من اليهم من الجدليين . إننا إن فعلنا غير هذا أئثنا، وكنا سبباً في احتلال كثير من الناس .

فإن تمثيل نعيم الجنة للعامة بأنه مادي من جنة فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ، وفيها مع هذا كله الثمرات . هذا التمثيل يدفع للخبير ويحث على الفضيلة . وأنه خير لهم من

(١)أبن رشد وأثره في الفكر التربوي : ١٧٠-١٨٠ (ينظر)
(٢)سير ملهمة من الشرق والغرب : ٧ .

تشكيكهم في هذا الجزء المادي المحس ، ومن محاولة تفهيمهم أن ما جاء به القرآن والحديث دالا على مادية الثواب إنما هو رموز وإن هذا الثواب الذي وعد به الفضلاء الأخيار لن يكون إلا معنوياً للنفوس وحدها التي ليس لها الى التمتع بتلك اللذات المادية من سبي ... أمل أهل الجدل والمتكلمون هم الذين يوجد في حقهم التشابه في بعض هذه النصوص . أنهم قد ارتفعوا عن العامة ولم يصلوا الى مرتبة الخاصة ، عرضت لهم شكوك وشبه يقدر على حلها ولكنهم تعلقوا بها فحاولوا عبثاً تأويلها فضلوا في أنفسهم وأضلوا من أتبعهم لهذا ذمهم الله بأن في قلوبهم زيفاً ومرضاً ، فهم يتبعون ما تشابه من القرآن ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما هم ببالغيه ، إذ لا يعلم هذا التأويل إلا الله والراسخون في العلم ، وهم ليسوا منهم في شيء .

المصادر

القرآن الكريم

- ١- أعلام الأسلام ابن رشد الفيلسوف ، محمد يوسف موسى ، دائرة المعارف الإسلامية ، ديت، ديت، ديت.

- ٢- اعلام التربية ، انطوان الخوري ، دار الكتب ، بيروت ، ١٩٧٤ م .
- ٣- الاسس النفسية لأراء المارودي التربوية ، جمال حسين الالوسي ، مطبعة بغداد ١٩٨٨ م .
- ٤- البيان والتبيان ، الجاحظ ، دار الفكر للجمع ، ١٩٦٨م.
- ٥- البخلاء ، تحقيق طه الحاجري ، ط٥ ، القاهرة ، ١٩٧٦ م .
- ٦- البرصان والعرجان ، تحقيق محمد موسي الخولي ، القاهرة ، ١٩٧٢ م .
- ٧- التربية والتعليم ، د. داخل حسن جريد ، دار الحكمة ، ١٩٩٠ م.
- ٨- التربية عبر التاريخ ، عبد الله عبد الدائم ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ١٩٧٥ م.
- ٩- التربية في الاسلام ، د. احمد فؤاد الاهواني ، دار المعارف ، بمصر ١٩٦٨ م.
- ١٠- التربية في البلاد العربية ، حاضرها ، مشكلاتها ومستقبلها ، د. عبد الله عبد الدايم دار العلم ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٧٩ م .
- ١١- الجاحظ فكر ومنهج : داود سلوم ، ط١ ، دار الشؤون الثقافية العامة ، ١٩٨٩ م .
- ١٢- الجوامع في الفلسفة كتاب السماع الطبيعي ، تحقيق جوزيف بويج ، المعهد الإسباني العربي للثقافة ، مدريد ١٩٨٣م (لإين رشد)
- ١٣- الجوانب السيكلوجية في ادب الجاحظ ، نوري جعفر ، وزارة الثقافة والاعلام ١٩٨١ م .
- ١٤- الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط٣ ، بيروت ، ١٩٦٩ م . .
- ١٥- سير ملهمة من الشرق والغرب : صموئيل نيسنيسون ، وليام دي وتب ، بقلم إسماعيل مظهر ، تقديم حسن جلال العروسي ، مكتبة النهضة المصرية .
- ١٦- صفحات تربوية من التراث العربي ، خليل ابراهيم السامرائي ، مطبعة اقسمت .
- ١٧- فصل المقال : ابن رشد مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٩٧ م .
- ١٨- فلسفة ابن رشد وأثره في الفكر التربوي : د. ماهر اسماعيل الجعفري ، د. كفاح يحيى صالح العسكري مراجعة وتقديم د. عبد الأمير الأعسم بيت الحكمة ، بغداد
- ١٩- معجم الادباء ، ياقوت الحموي ، ط ماركيلوث ، القاهرة .
- ٢٠- مجلة العربية : مجلة علمية فصلية تهتم بقضايا وآفاق عالم المكتبات والمعلومات والأرشيف ونظم وتكنولوجيا المعلومات في الوطن العربي ، عرين ، الندوة العربية الخامسة ، شباط ٢٠٠١م.
- ٢١- الوعي التربوي ومستقبل البلاد العربية ، شهلاء جورج وعبد السميع ط٢ ، ١٩٦١ م .